اللسانيات - مقدمة إلى المقدمات

(Aitchison's Linguistics)[1]

عرض ومراجعة أ. د. أحمد محمّد قدُّور[*]

مقدّمة:

اتخذتِ اللسانيات سبلًا مختلفة في دخولها إلى علوم اللغة عندنا، كالاقتباس، والترجمة، والاستمداد، والتأليف الخالص. ويمكن أن نعدّ مطلع السبعينيات من القرن الماضي بداية للتدافع على موضوع اللسانيات، والإكثار من الترجمات، وابتداع المصطلحات. وقد شكا الكثير من أهل الاختصاص من الترجمات الركيكة التي تؤخذ عادة من مصادر أجنبية عامة، أو قديمة بحسب تاريخ العلم في أوربة. وما زالت الحاجة ماسّة إلى ترجمة المصادر الأصيلة في اللسانيات، ووضعها بين أيدي الباحثين المختصين. ومع أنّ الكثير من هذا القبيل قد أُنجز، يتطلّب التطوّر السريع في نظريات اللسانيات ومدارسها متابعة جدّية لِما يصدر في أرجاء العالم، ولا سيّما أنّ وسائل الاتصال سهّلتِ الحصول على الجديد أولًا بأول.

---

(١) اللسانيات – مقدّمة إلى المقدّمات، تأليف جين إتشسن، ترجمة وتعليق عبد الكريم محمد جبل، المركز القومي للترجمة، ط. أولى ٢٠١٦م بالقاهرة. ويقع في (٥٠٠) صفحة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، أستاذ البلاغة والنقد في جامعة حلب.

ورد إلى مجلة المجمع في ٢٧/ ١٠/ ٢٠٢١م

والكتاب الذي بين أيدينا مصدر أصيل، وحديث، فقد صدرت طبعته الإنكليزية الأخيرة عام ٢٠١٠م، وتُرجم إلى العربيّة ٢٠١٦م. والكتاب من تأليف «جين إتشسن» (Jean Aichion) الأستاذة في جامعة أكسفورد ببريطانيا. وتعدّ هذه الطبعة السابعة للكتاب، إذ صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٢م، وما زالت المؤلّفة تتعهّده بالزيادة والتنقيح في طبعاته المتوالية منذ ذلك التاريخ. والكتاب يقدّم معالجات قريبة المتناول، تجمع بين الشمول والإيجاز للمسائل الأساسية لهذا العلم، ولاتجاهات البحث المهمّة التي تعاورت عليه منذ نشأته حتى العقد الأول من القرن الحالي. (ص١٣). ولما كان الكتاب يمثّل مقدمة مثالية لعلم اللسانيات اقترح المترجم الدكتور عبد الكريم محمد جبل عنوانًا فرعيًّا للكتاب استمدّه من مقدّمة المؤلِّفة، وهو (مقدّمة إلى المقدّمات). واللسانيات فرع معرفي سريع التغيّر، وقد تطوّرت بعض مسائله تطوّرًا كبيرًا. وما زال هذا العلم يزداد توسّعًا، وكأنه دوحة ما برحت تنبت أغصانًا جديدة كلّ حين. وترى المؤلفة أنّ كتابها يأخذ بأيدي من يحاولون اقتحام دائرة اللسانيات، تلك الدائرة المحظوظة المقصورة على عدد قليل من الدارسين، ويشرح المفاهيم والمصطلحات الرئيسة في هذا التخصّص. ولذلك امتاز الكتاب بالإكثار من الأمثلة والشروح. «ولما كان علم اللسانيات يمثّل فرعًا معرفيًّا تخصّصيًّا، لم أجد بدًّا منِ استعمال المصطلحات الفنية الجارية في هذا العلم، مع التزامي بشرح كلٍّ من هذه المصطلحات شرحًا يجلّي مفهومه قدر المستطاع». (ص٢١).

ويضمّ الكتاب معظم المسائل المدروسة في اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية، مع اهتمام بالتغيّر اللغوي والمقارنات، وبالنحو الكلّي الذي سعى إليه تشومسكي الذي أحيا اهتمام الدارسين بالكلّيات

اللغوية (language Universals). فقد كان هذا الموضوع مهملًا إلى حدٍّ ما في بدايات القرن العشرين. (ص٣٧٩-٣٨٠).

أقسام الكتاب:

وجعلت المؤلفة الكتاب في خمسة أقسام، تجري على هذا النحو: القسم الأول عنونته باستهلال، والقسم الثاني سمّته الدوائر الداخلية، وتقصد مسائل الدرس النظري للغة. والقسم الثالث جعلته للدوائر الخارجية، وقصدت أن تعرض هنا مسائل للدرس التطبيقي لِلّغة، كما سيتّضِح لاحقًا. والقسم الرابع كسرته على التغيّرات والمقارنات. والقسم الخامس وَسَمته بـ(نحوَ نحوٍ كلّي). وأعقب ذلك عدد من الملاحق، وأهمّها دراسة أصوات الكلام في اللغة الإنكليزية. والمؤلفة تذهب مع عدد من اللسانيين المحدثين الذين يُخرجون «علم الأصوات» (Phonetics) من دوائر الدرس اللساني، لأنه علم يختصّ بالنطق وفيزيولوجيا الكلام والموجات الصوتية والتجارب المخبرية؛ على حين أنهم يُبقون على العلم الآخر للأصوات ضمن اللسانيات، وهو الفونولوجيا(Phonology)، وهو العلم الصوتي الذي يدرس تشكيل أصوات لغة معيّنة في مقاطع وكلمات.

وتخلو أمثلة المؤلفة من أمثلة عربية، لأنها - كما يبدو - لا تعرف العربية. وقد أكثرت من الأمثلة الإنكليزية، كما أشارت إلى أمثلة أخرى للغات أوربية، وللتركية ولبعض اللغات المنقرضة في أمريكا الشمالية. غير أنّ المترجم المتمكّن الدكتور جبل أضاف في حواشي الكتاب أمثلة عربية، كما أضاف إيضاحات مهمّة، لأنّ هذه الترجمة موجّهة إلى قرّاءٍ عرب. وليس هذا النحو من المؤلفة غريبًا، إذ دأب معظم المؤلفين في اللسانيات الأجنبية على إغفال لغتنا وعلومها؛ فخلت مؤلفاتهم، ما عدا قلّة منها، من

أيّ مثال عربيّ، ولو كان مترجمًا[٢].

وليس في الكتاب مقدّمات واسعة لتاريخ اللسانيات ومدارسها، ما عدا المدرسة التوليدية والتحويلية لتشومسكي التي جُعلت في قسم مستقل، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك آنفًا.

وحسنات هذه الترجمة كثيرة، أهمّها اللغة العلمية الرصينة، والمصطلحات الدقيقة، والشروح والإيضاحات المهمّة. من ذلك أنّ المترجم عرض للأمثلة الإنكليزية بنصّها، وأثبتها في المتن، مع ترجمة موجزة لها حين الحاجة. لأنّ الاجتزاء بالترجمة العربية، كما هو شائع، يفقد الأمثلة الأصلية الغرض التركيبي الذي سيقت لأجله. وزيادة في الالتزام بما تقدّم ترجم الدكتور جبل الأمثلة الأجنبية ترجمة حرفية عربية تعوزها البلاغة، ولكنها صحيحة الصياغة، كما قال (ص١٧)، واعتمد المترجم في المصطلحات كتاب الدكتور رمزي بعلبكي «معجم المصطلحات اللغوية»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م». وهو من أحسن ما ألّف في بابه. كما اعتمد مصادر معجمية ثنائية اللغة، ومصادر أخرى لغوية بالعربية والإنكليزية حرصًا على طلب الدقّة وتحرّي الصواب.

القسم الأول: استهلال:

وهذا عرض لمضامين الكتاب. ففي القسم الأول: استهلال، تعريف باللسانيات ووظائفها. وترى المؤلفة أنّ اللساني لا يحتاج إلى التحدّث بلغات مختلفة، أي: لا ضرورة لإتقانه لغاتٍ متعدّدةً، بل يحتاج إلى أن يحصّل خبرة واسعة بالأنماط المختلفة للغات الإنسانية؛ وأنه – أيِ:

(٢) وقفت على مثال يتيم تشير فيه المؤلفة إلى كثرة المفردات الدالة على أنواع الإبل في العربية. ص١٨٨، والحاشية رقم(١) من الصفحة نفسها.

اللساني- لا يُملي على الناس كيف يتكلّمون، بل ينهض بمهمّة وصف علمي محايد لكلام الناس من غير تدخّل، أو تقييم؛ وينبغي له أن يصف اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة كلًّا على حدة، وبالمنهج نفسه. وتخلص المؤلفة إلى أنّ علماء اللسانيات يسعَون إلى تأسيس إطار عالمي من القواعد، لكن لا مسوّغ يحتّم أن يكون هذا الإطار مشابهًا لقواعد اللغة اللاتينية، أو لقواعد أيّ لغة أخرى. (ص٣٩). وتقف المؤلفة هنا على خصائص اللغة الإنسانية، كالاعتباطية (Arbitrariness)، أي: عدم وجود علاقة طبيعية بين الأصوات، وما تدلّ عليه أصلًا. وتتميّز اللغة بالإبداعية، مع وجود عدد محدود من الأصوات والقوالب (Patterns) التي تنتظم مكوّناتها المختلفة. وفي الجزء المعنون باتجاهات دراسة اللغة توجز المؤلفة القول في الملامح العامة للاتجاهات الرئيسة لعلم اللسانيات خلال القرنين الماضيين، وتطرح بعض التوقّعات بشأن الاتجاهات المستقبلية المحتملة لهذا العلم. وتعرض بإيجاز للسانيات التاريخية والوصفية، وتشير إلى «دو سوسير» و«ليونارد بلومفيلد»، وتعرّف بجهود «تشومسكي»، وتستشرف آفاق البحث المستقبلية. وتشير أخيرًا إلى اتجاهين في دراسة اللغة: أحدهما يدرس لغة واحدة بعينها، والآخر يدرس اللغة في إطار أوسع، أي: بوصفها ظاهرة إنسانية عامة. (ص٧٠-٩٤).

القسم الثاني: الدوائر الداخلية:

ويضم القسم الثاني من الكتاب (الدوائر الداخلية) بحوثًا في فونولوجيا اللغة الإنكليزية، وتشرح المؤلّفة مفهوم الفونيم (Phoneme)، وهو أصغر وحدة صوتية لها أثر استبدالي في التراكيب، أي: ما يعادل مفهوم الحرف عندنا تقريبًا؛ وكذلك تعرّف بالألفون (Allophone)، وهو صورة نطقية

للفونيم لا تؤثّر في المعنى، ويشبه ذلك عندنا صور النطق المتعدّدة للجيم والشين والنون مثلًا وفق السياقات اللغوية أو التنوّعات الاجتماعية من غير أن يؤثّر ذلك في المعنى. وتتعرّض المؤلّفة لما يدعى بالفونولوجيا العروضية التي تعيّن الإيقاعات ودلالاتها. (ص١٠١-١٢٠)، وتقف في جزءٍ تالٍ عند الكلمات وأجزائها، أيِ: المورفيمات (Morphemes)، وهي أصغر وحدة صرفية ذات دلالة وظيفية، كالأدوات وأجزاء الكلمات وحركات الأبنية عندنا؛ وتشرح مفهوم الألومورفات (Allomorphes) التي تدلّ على صور متنوّعة للمورفيمات، كتعدّد صور الجمع لأسباب صوتية. (ص١٢٣-١٤٠). وتعرض المؤلفة لأقسام الكلام (parts of speech)، وارتباطاتها التركيبية. (ص١٤٠- ١٤٥). ثم تتناول في قسم آخر تحليل الجمل التي تنتظم اللغة، وتستعمل المشجّرات، وقواعد إعادة الصياغة. وتعرض للتداخل بين النحو والصرف والدلالة، وتحلّل أمثلة من الجمل المعقّدة؛ وتخلص إلى أنّ الدرس التركيبي يتداخل مع الدرس الدلالي، وخاصة في الأفعال، لما تحمله من معلومات تركيبية، وأخرى دلالية. (ص١٤٧-١٨٠). وتقف المؤلفة في قسم آخر عند الدلالة، وتشير إلى مهمّة علم الدلالة في دراسة المعنى. وتتناول مسائل معنى الكلمة وارتباطها بالعالم الخارجي، والمجالات الدلالية، والمترادفات والمتقابلات، ومعاني الجمل؛ وترى أنّ علماء «علم الدلالة» (semantics) معنيّون بالبحث في أسباب قابلية بعض الجمل للفهم، واستعصاء أخرى عليه؛ وبالبحث في القدرة التي تمكّن أهل اللغة من إدراك المعاني المتماثلة والغامضة لبعض الجمل على حدّ سواء (ص١٨٣-٢٠٥). ويمثل هذا القسم الجزء المخصّص لدراسة اللغة نفسها، أو ما يدعى باللسانيات النظرية. وتخلو

المسائل المدروسة هنا من مداخل تاريخية؛ إذِ اكتفت المؤلفة غالبًا بتعريفات موجزة لاختصاص الدرس الصوتي الفونولوجي، والدرس المورفولوجي، والدرس التركيبي النحوي، والدرس الدلالي.

القسم الثالث: الدوائر الخارجية:

أما القسم الثالث من الكتاب فهو مخصّص للدوائر الخارجية، أيِ: اللسانيات التطبيقية، واختارت المؤلفة أن تدرس هنا عددًا من فروع هذه اللسانيات الكثيرة؛ فدرستِ استعمال اللغة، أيِ: التداولية (pragmatics)، واللغة والمجتمع، أيِ: اللسانيات الاجتماعية (علم اللغة الاجتماعي) (sociolinguistics)، واللغة والعقل، أيِ: اللسانيات النفسية (psycholinguistics)، واللغة والأسلوب، أيِ: الأسلوبية (stylistics). وتضمّ اللسانيات التطبيقية فضلًا عمّا تقدّم فنّ تعليم اللغات، وصناعة المعجم، والترجمة، وأمراض الكلام، ومختبرات اللغة، واللسانيات الجغرافية، والعصبية، والتربوية، والأجناسية (الإثنولوجية)، والرياضية، والحاسوبية، والبيولوجية، والنوعية (الجينية)، والسيميائية (علم العلامات)، والنصية، وغيرها[٣]. ودرست المؤلفة في قسم استعمال اللغة مسائل تداولية. والتداولية فرع من اللسانيات معنيّ بدراسة جوانب المعنى التي لا يمكن الوقوف عليها عبر التحليل الذي تقدّمه النظريات الدلالية المختلفة. وإجمالًا إنّ التداولية تبحث في الكيفية التي يوظّف بها البشر اللغة، على نحو لا يمكن التنبؤ به عبر المعرفة اللغوية وحدها. ويمكننا القول: إنّ التداولية تتعامل مع المبادئ العامة التي يتّبعها الناس حين يتواصل بعضهم

(٣) مبادئ اللسانيات العامة لأحمد قدور (ط.٢٠٠٦، جامعة حلب)، ص ٢٩-٣٠، وقارن بالقاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تأليف ديكرو وسشايفر، ترجمة منذر عيّاشي، جامعة البحرين، ٢٠٠٣م.

مع بعض. (ص٢١٢). وتقف المؤلّفة عند المبادئ التي اقترحها «بول جرايس» (Paul Grice) للدلالة على التعاون الذي يتأسّس عليه السلوك الإنساني في الحوار، وهي مبادئ الكميّة، والنوعية، والمناسبة، وطريقة العرض. ويمكن تلخيص مبادئ جرايس تلخيصًا يجمعها في مبدأ واحد فقط، وهو «كن متعاونًا»، وهو مبدأ يمثّل مَجلًى من مجالِي ميل البشر الفطري إلى مساعدة بعضهم لبعض. وتدرس المؤلفة كذلك الأحداث الكلامية. ففي بعض الأحيان تمثّل الألفاظ التي نتفوّه بها بديلًا كلاميًّا عن بعض الأحداث، ويتجلّى ذلك في الأوامر. ويتجلّى الحدث الكلامي غير المباشر حين يستعمل أحدنا حدثًا كلاميًّا بدلًا من آخر، كأن نستعمل سؤالًا بدلًا من الأمر المباشر. وتدرس المؤلفة تحليل الخطاب، والحوار، والتأدّب حين نبتعد عن انتقاد الآخرين، وفرض أنفسنا عليهم. (ص٢١٢-٢٢٨)، وفي قسم اللغة والمجتمع عرّفت المؤلفة بإيجاز باللسانيات الاجتماعية ومهمّاتها، ولا سيّما دراسة التنوّع اللغوي واللهجات والازدواجية اللغوية، وبيان أثر المجتمع في كلّ ما تقدّم؛ وفرّقت بين اللهجة واللكنة، وبين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، ودرست التنوّع الفونولوجي في الإنكليزية البريطانية، كما درست العلاقة بين اللغة ونوع الجنس (ذكر أو أنثى). ولاحظت أنه في السنوات الأخيرة في بريطانيا لم تعد الفروق كبيرة بين كلام الرجال وكلام النساء، وخاصة الموظّفات منهنّ، بل أخذت في التلاشي. ووقفت عند تعدّد اللغات، واللغات (المزيج أو الخليط) (pidgin) التي قد تتحوّل إلى شكل آخر يدعى بـ (Creoles). وفور تحوّل اللغة من نوع الخليط إلى لغة من نوع (كريول) يجنح نظام هذه الأخيرة إلى التطوّر سريعًا، فتزداد طلاقة الحديث بها، وتغدو التراكيب أكثر تعقيدًا، وتُبتكر مفردات جديدة (ص٢٣١- ٢٦٢). وفي قسم تالٍ تقف المؤلّفة عند مسائلَ منَ

اللسانيات النفسية، وتلخص القول في بعض الجهود المبذولة في ثلاثة موضوعات أساسية، هي: كيفية اكتساب الإنسان لِلّغة، وكيفية فهم الإنسان لها، وكيفية إنتاج الإنسان للكلام. وترى أنه ثار جدال بين علماء اللسانيات حول ما يسمّى «الاحتواء في مقابل المعالجة»، أي: هل يتميّز الأطفال خلقيًّا باحتواء مِخاخِهم على معلومات لغوية، أم أنّهم يمثلون مخلوقاتٍ ذكيةً نجحت في معالجة البيانات اللغوية، وحلّ أُحجياتها؟ وتفصّل الحديث عن لغة الطفل، واختلافها عن لغة البالغين. وتعرض لاضطرابات الكلام، وتشير إلى العلاقة بين اللغة والمخ، وتعيين مراكز اللغة بالمخ على يد الجرّاح الفرنسي «بروكا» (Broca)، والطبيب الألماني «فيرنيك» (Wernick)، وأثر تلف هذه المراكز في مشكلات النطق والفهم، أو ما يُدعى بالحبسة (Aphasia)[٤]. وتعدّ حبسة «فقدان الصحة النحوية» أشهرَ أنواع الحبسة؛ وهي تقابل حبسة أخرى أقل منها ذيوعًا، تعرف بـ«حبسة الطلاقة». وعامة يكثر أن يكابد المصابون في الجزء الأمامي من المخ صعوبة في إنتاج الكلام (أيِ: النطق)، وأن يجد المصابون في الجزء الخلفي منه صعوبة في فهم ما يقال لهم. وتبقى تفصيلات أخرى وإرشادات علاجية لدى فرع آخر من اللسانيات التطبيقية، كنا أشرنا إليه فيما تقدّم، وهو اختصاص أمراض الكلام. (ص٢٦٥- ٢٩٠).

الأسلوبية:

وفي جزء تالٍ، وهو الأخير في الدوائر الخارجية تتناول المؤلّفة موضوع الأسلوب وعلم الأسلوب (أيِ: الأسلوبية)؛ وتعرض للتحليل اللغوي لِلّغة الأدبية، ولا سيّما اللغة الشعرية، كما تعرض للمجاز، وتلاحظ

(٤) انظر: أساسيات علم الكلام لبوردن وهاريس، ترجمة محيي الدين حميدي، ص١٠٤- ١١٣، وكان اكتشاف بروكا عام ١٨٦١، واكتشاف فيرنكة عام ١٨٧٤م.

أنّ الاستعارات الجيّدة تتميّز بالجمع بين الجدّة ومناسبة مقتضى الحال، فهي تدهش القارئ، لكنها بعيدة عن الإفراط في الإغراب. وتشير المؤلفة إلى التكرار والقافية والوزن الشعري (Metre). وتقارن بين هيكلية القصيدة، والخبر الصحفي؛ وتعرض لِلغة الإعلانات، وتلاحظ أنّ إحداث التأثير المنشود من الإعلان يتطلّب الاختصار، واستعمال الألفاظ المتجانسة لفظًا، المتباينة معنًى، واستعمال الأفعال في صيغة الطلب. والسياسيون عامة بارعون في إقناع الناس بإعلاناتهم المدروسة تمامًا، التي تجذب الأنظار، وتؤثّر في العقول؛ ولا يدرك الناس ما تنطوي عليه هذه الإعلانات من حيل لغوية وسياسيّة. (ص٢٩٣- ٣١٥).

القسم الرابع: التغيّرات والمقارنات:

وفي القسم الرابع من الكتاب تدرس المؤلفة التغيّرات والمقارنات، وهما موضوعان متفرّعان من المنهجين التاريخي والمقارن. وعُنيتِ المؤلفة بدراسة الطريقة التي تتغيّر بها اللغة، والأسباب التي تقف وراء هذا التغيّر، ومناهج علماء اللسانيات في درس ذلك؛ ولاحظتِ المؤلّفة أنّ اللغات الإنسانية تخضع للتغيّر المستمرّ في أصواتها، وتراكيبها، ومعاني ألفاظها. ولا يفطن أهل اللغة غالبًا إلى هذا التغير التدريجي؛ لأنّ أصوات اللغة وتراكيبها خاصة تعطي انطباعًا ظاهريًّا بأنها ثابتة لم تتغيّر. على حين أنّ نظرة إلى لغة «تشوسر» (Chaucer) (ت نحو ١٤٠٠م)، و«شكسبير» (ت١٦١٦م) تظهر أنّ اللغة الإنكليزية قد تغيّرت تغيّرًا كثيرًا في زمان قصير نسبيًّا؛ وأنّ الإنكليزية المعاصرة شرعت في التبدّل. والمؤلفة تجري هنا مجرى جمهرة اللسانيين الذين يتقبّلون أيّ تغيير يحدث في اللغة، ولا يضعون معايير للصواب والخطأ، إذ تركوا ذلك للمعلّمين. وتبحث المؤلّفة الطريقة التي تتغيّر بها اللغات، وطرق انتشار التغيّر، وأسباب التغيّر

جملة. ويسلّم اللسانيون – كما ترى – بأنّ التغيّر اللغوي لا يقع على نحو عشوائي؛ لعدة أسباب: منها ما نلاحظه من حصول ضروب مماثلة من التغيّر في كلّ أنحاء العالم، بلغاته المختلفة، ومنها أنّ أيًّا من ضروب هذا التغيّر لم يُفضِ إلى فقدان اللغة لقوالبها الأساسية التي تنتظم مكوّناتها المختلفة. ولمّا كان التغيّر اللغوي لا يُنجَزُ سريعًا، بل يستغرق أمدًا طويلًا، أُحتيج إلى دراسة الطريقة التي تغيّرت وَفقها اللغات الإنسانية عبر القرون. ولذلك يوسّع علماء اللسانيات التاريخية مجال معارفهم، بإعادة تشكيل المراحل التي مرّت بها بعض اللغات التي لا توفّر لها وثائق مكتوبة (ص٣٢١-٣٣٨).

اللسانيات المقارنة والتقابلية:

ثمّ تعرض المؤلّفة للمقارنة بين اللغات، وترى أنّ اللسانيات المقارنة فرع من اللسانيات التاريخية. والمنهج المقارن يدرس ظاهرتين لغويتين تنتميان إلى فرع واحد أو أسرة لغوية واحدة، للوقوف على وجوه التشابه، وبيان صلات القرابة. وقد أنتج هذا المنهج تصنيفًا علميًّا للأسر اللغوية في العالم، ووقف على أوجه الشبه بين اللغات عامة. ويكاد يكون البحث عن أوجه التشابه بين اللغات محلّ اهتمام جميع علماء اللسانيات تقريبًا؛ لأنّ البحث عن الكلّيات اللغوية يمثّل واحدًا من أبرز مهمّات الدرس اللساني. وشُغِلَ علماء المقارنات بإعادة تشكيل اللغة الأمّ؛ والتحقّق من أنّ الصورة التي انتهى إليها البحث يمكن أن تمثّل لغةً أمًّا لعدد من اللغات في ضوء معرفتنا بعموم اللغات الإنسانية. وليس من الضرورة أن تكلّل جهود اللسانيين في هذا المجال بالنجاح، لأسباب متعدّدة، منها صعوبة التحقّق من النطق الفعلي للغة الأمّ. ومنها أنّ من الصعوبة وجود لغة تتألّف من بنية موحّدة متجانسة، إذ تتوزّعها تنوّعات لهجية مختلفة تؤثّر في سلامة المنهج،

ونتائجه المرجوّة. والخلاصة أنّ عمليّات إعادة التشكيل هذه لا تتجاوز كونها تخمينات. ولا يمتلك أحدنا الآن تلك الثقة التي امتلكها بعض علماء القرن التاسع عشر حين حاول إعادة هذا التشكيل بالكثير من الحماسة. ويمكن أن يقال عن موضوع الكليّات اللغوية أيضًا ما يشبه ذلك، إذ ثبت أن ثمة صعوباتٍ في تعيين الكلّيات «المطلقة»، أيِ: السمات اللغوية التي تتقاسمها كلّ اللغات. وقدِ انتهى المطاف بالذين حاولوا تَعداد تلك الكليات المطلقة إلى تقرير مقولات مجملة مبهمة. وتعرض المؤلفة لمعايير تصنيف اللغات من الوجهة الصرفية والوجهة النحوية (أي: ما دعته بمعيار ترتيب الكلمات داخل الجمل). وسبق للمؤلفة أن أشارت في مطلع هذا القسم إلى اللسانيات التقابلية (Contrastive)، وهو فرع لساني يهتمّ بمواطن الاختلاف بين اللغات. وينهض بهذا الضرب من الدرس -في المقام الأول- اللسانيون التطبيقيون (Applied linguists)، وهو الوصف الذي يوسم به اللسانيون المعنيّون بتطبيق مبادئ اللسانيات في مجال تعليم اللغة. على أنّ ما ذكرته المؤلّفة ينطبق على الذين يتعاطَون أيّ فرع من فروع اللسانيات التطبيقية كذلك.(ص٣٤١- ٣٦٢).

وخصّصت المؤلفة جزءًا خاصًّا تتبّعت فيه المواقف المختلفة إزاء تغيّر اللغة. وناقشت في هذا الجزء وجهة نظر الذين يقلقهم حال اللغة، أي: أولئك الذين يخشَون منِ انحطاط اللغة الإنكليزية؛ ثمّ ذكرتِ الأسباب التي تفضي إلى ظهور هذا القلق، وأوضحت فكرة اللغة الفصحى (standard language). وترى المؤلفة أنّه لا يخلو زمان من أولئك الذين يقلقهم حال اللغة. فمنذ «صمويل جونسون» (S. Johnson) (ت١٧٨٤م) في القرن الثامن عشر تقرّر أنّ للغات ميلًا طبيعيًّا للتدهور، ولا بدّ من وقف هذا التدهور

«المزعوم». وفي القرن نفسه شكا «روبرت لوث» (R. Lowth) عام ١٧٦٢م من أنّ أفضل الكتّاب قد أذنبوا بالوقوع في أخطاءٍ واضحة تتعلّق بقواعد اللغة. لقد كان «لوث» واحدًا من ذوي النيّات الطيّبة، أقلقهم حال اللغة الإنكليزية، فشرعوا يخترعون من أنفسهم قواعد غريبة لهذه اللغة. وقد تحوّلت بعض هذه القواعد إلى بقايا متحجّرة، في كتب القواعد التي يدرسها التلاميذ بالمدارس. وهناك دوافع مختلفة لتلك المواقف الرافضة لتطوّر اللغة الإنكليزية، منها دوافع دينية. فثمة وجهة نظر ترى أن الله تعالى حين خلق اللغاتِ الإنسانيةَ خلقها على مستوًى واحد منَ المزايا، بيد أنّ بعض هذه اللغات قدِ انحطّ بمرور الزمن عن ذلك المستوى الأول. وترى المؤلفة أنّ مفهوم الفصحى (Standard) يمتاز بقدر من الغموض، وهي عامة لغة المتعلّمين؛ وعلى ذلك شاع قول «هنري وايلد» (ت١٩٤٥م) إنّ اللغة الإنكليزية الفصحى يتكلّمها أناس ذوو قدر متماثل من التعليم والتثقيف في كلّ أنحاء القطر، أي: (إنكلترا). (ص٣٧٠). وتعرض المؤلفة للإنكليزية غير الفصحى، وترى أنها تنوّعات للإنكليزية لها قدر متساوٍ من الصحّة، ولكنها ربّما تتفاوت في مدى مناسبتها لمقامات الكلام المختلفة. ونذكّر بموقف المؤلفة الوصفي من درس اللغة، وعدم الاعتداد بمعايير مفروضة عليها. (ص٣٦٥-٣٧٢).

القسم الخامس: نحوَ نَحْوٍ كلّيٍّ:

وفي القسم الخامس من الكتاب تدرس المؤلفة الاتجاه (نحوَ نحْوٍ كلّي) على أساس أنّ من يفهم نحو لغة من اللغات يستطيع أن يفهم كذلك نحو اللغات الأخرى، إذا كنّا نقصد بالنحو سماتِهِ الأساسيةَ، لا تفاصيلَهُ الدقيقة. وتَتَّبِع المؤلفة جهود اللساني الشهير «ناعوم تشومسكي» (N. Chomsky)

(ولد عام ١٩٢٨ وما يزال حيًّا)[٥]؛ وترى أنّ تشومسكي استهلّ عصر اللسانيات التوليدية التي تُعنَى بالبحث في القواعد الباطنية الأساسية التي تقوم عليها ظاهرة اللغة الإنسانية، ولا تُعنَى بالبحث في المنطوقات الفعلية التي تجري على الألسن في حدّ ذاتها. وقد أحدث كتاب تشومسكي الصغير «البنى النحوية»، الصادر عام ١٩٥٧م ثورة في اللسانيات. وطرح تشومسكي نموذج «النحو التحويلي» لمعالجة بنية اللغة بديلًا من النماذج الأخرى التي طرحها سابقون أو معاصرون له. ويشتمل هذا النحو التحويلي على مستويين للبنية التركيبية: مستوى البنية العميقة، ومستوى البنية السطحية،

(٥) ولد تشومسكي في فيلادلفيا بالولايات المتحدة، كان والده عالمًا باللغة العبرية. درس في جامعة بنسيلفانيا على يد هاريس، واهتم بالرياضيات والمنطق، وبعد حصوله على الدكتوراه انضمّ إلى معهد ماستشوتس للتكنولوجيا، وكان في البداية معلّمًا للغة الألمانية واللغة الفرنسية، ومنذ عام ١٩٦١م صار «أستاذًا» في المعهد نفسه. جمعت بعض أعماله في ستة مجلدات مختصرة، وأهمّها الأبنية النحوية ١٩٥٧م، وإصدارات معاصرة في النظرية اللغوية ١٩٦٤م، وجوانب النظرية النحوية ١٩٦٥م، وموضوعات في نظرية النحو التوليدي ١٩٦٦م، وعلم اللغة الديكارتي ١٩٦٦م، واللغة والعقل ١٩٦٨م. ومنذ النصف الثاني من الستينيات انحاز تشومسكي سياسيًّا بقوّة إلى الحركة المناهضة للحرب في فيتنام وغيرها من حروب أمريكا في لاوس والفيلبين، وفي الخليج، وهاجم الأفكار الصهيونية هجومًا صريحًا في أكثر من موضع، وما يزال ينشط في مجال السياسة الدولية. وأفاد تشومسكي في أحد لقاءاته الصحفيّة أنّه درس الآجرّومية لابن آجرّوم (ت ٧٢٣هـ)، وهي متن نحوي شهير، مع الأستاذ فرانز روزنتال، وأنّه اطلع على النحو في (اللغات الساميّة) التي اهتمّ بها فترة من حياته، كما ذكر أنّه كان مهتمًّا بالنحو العربي والعبري. انظر: الألسنية (علم اللغة الحديث) - المبادئ والأعلام لميشال زكريا، ص٢٦٠ وما يليها؛ وعلم اللغة في القرن العشرين لجورج مونان، ترجمة نجيب غزاوي، ص١٩٣ وما يليها، ومناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي لبريجيته بارتشت، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، ص ٢٦٣ وما يليها، ومجلة اللسانيات، معهد العلوم اللسانية والصوتيّة، الجزائر، العدد (٦) لعام ١٩٨٢، ص ٧٢.

تربط بينهما قواعد أو عمليات تحويلية. وقدّم تشومسكي حججًا أقنعت كثيرًا من الدارسين بما اقترحه. ثم قدّم تصوّرَهُ الثانيَ المعدّل بالنظرة النموذجية (Standard Theory). ونجد هنا أنّ كلّ قاعدةٍ تحويلية قدِ انتظمت شقّين: الأول: التحليل التركيبي، والثاني: التغيير التركيبي. ويمكن للقواعد التحويلية الأخيرة أن تتصرّف في مكوّنات الجمل على أنحاءٍ مختلفة، فتحرّك مكوّنات عن مواضعها تارة، وتضيف مكوّنات، أو تحذفها تاراتٍ أخرى. وتشمل النظرية النموذجية للنحو التحويلي أربعًا وعشرين قاعدة. وكلّ قاعدة تستأثر ببنية تركيبية بعينها تطبّق عليها تحريكًا أو حذفًا أو إضافة كما تقدّم. ومن غير الكافي التطرّق إلى بعض الأمثلة، إذ هي معروضة مفصّلة في الكتاب. وتخلص المؤلفة إلى أنّ بعض اللسانيين ممّن أفرطوا في الثقة بأنفسهم ظنوا أننا سوف نستطيع إن عاجلًا أو آجلًا أن نضع (قائمة) كاملة بالقواعد التحويلية في اللغة الإنكليزية، مع تفاصيل وافية بالطريقة التي اشتغلت بها هذه القواعد. ولكنّ هذا الظنّ الطموح لم يتحقّق للأسف قطّ. (ص٣٦٥-٤٠٠).

مشكلات القواعد التحويلية:

وفي قسم جزئي تالٍ تعرض المؤلفة لمشكلات في مواجهة القواعد التحويلية. وقد تمثّلت أوضح المشكلات التي جابهتِ القواعد التحويلية، كما جسّدتها النظرية النموذجية عام ١٩٦٥م، في أنّ هذه القواعد قد بدت، وكأنها عصًا سحرية تستطيع أن تحوّل أيّ بنية عميقة إلى أيّ نوع من البنى السطحية، بأيّ وسيلة كانت. ولا ريب في أنّ هذه المظنّة قد كانت ضربًا من العبث؛ إذ ثمة حاجة إلى وضع قيود على عمل تلك القواعد في بنية اللغة. أهمّها الحفاظ على المعنى. على أنّ هذا القيد أخفق بعد أن ثبت يقينًا أنّ

عددًا من تلك القواعد قد غيّر المعنى. وحاول بعض اللسانيين الآخرين علاج تلك المشكلة بالقول: إنّ هناك حالات استثنائية بعينها هي التي يتغيّر فيها المعنى. وكانت المشكلة الثانية للقواعد التحويلية بعد مشكلة تغيير المعنى أنّ هذه القواعد كانت بالغة الكثرة والتنوّع. أمّا المشكلة الثّالثة فكانت تتجلّى في أنّ بعض القواعد ينطبق على حالات قليلة بعينها، في حين يُفترض في القاعدة، أيّ قاعدة أن تتّسم بقدر كبير منَ الاطّراد، وأن تنتظم عددًا وافرًا منَ الجزئيات لدى تطبيقها، ممّا يسوّغ النظر إليها على أنّها حقًّا «قاعدة». وترتّب على ما سبق اختصار القواعد التحويلية إلى قاعدة تحويلية واحدة فقط، والاستغناء عمّا عداها. (٤٠٣-٤٢١).

وفي قسم فرعي آخَرَ تعزم المؤلفة على العودة إلى الأساسيات ضمن العرض التفصيلي لنظريات «تشومسكي» المتطوّرة؛ فقد تميّز نحو «تشومسكي» الذي اشتغل به في ثمانينيات القرن الماضي الذي أسماه «نظرية العمل والربط النحويين» بمباينته للنظرية النموذجية أشدّ التباين، ومقترحاته التي عرضها في تسعينيات القرن الماضي، وقد أسماها «برنامج الحدّ الأدنى» كانت أشدّ مباينة لهذه النظرية. بل لقد تخلّى «تشومسكي» في أحدث اجتهاداته عن القواعد التحويلية أصلًا. وقد تحوّل «تشومسكي» إلى الاهتمام بمشكلة القدرة على التعلّم اهتمامًا خاصًّا، وافترض أنّ الأطفال يولدون مزوّدين بنحو كلّي(Universal Grammar)، أي: بذخيرة معرفية أساسية بالسمات اللغوية المفتاحية. لكنّ هذه الذخيرة تحتاج إلى تكميل وتعزيز عبر مجموعة من الوسائط (Parmeters)، وهي الوسائط التي لا بدّ أنها ترسّخت بتأثير الخبرات اللغوية المتراكمة للأطفال. وأطلق على التصوّر السابق مصطلح «نموذج المبادئ والوسائط»، وسُمِّي فيما بعد

بنظرية العمل والربط النحويين. ويُعنى «العمل النحوي» بالنظر في الوحدات اللغوية التي كانت الكلمات الرئيسة للمكونات سببًا في ورودها. على حين يُعْنَى «الربط النحوي» بالنظر في تفسير الجمل التي تشتمل على مكوّنات يرتبط بعضها ببعض. وسُمِّيت رؤى تشومسكي السابقة ببرنامج الحدّ الأدنى (Minimalist Program)، لأنها قدِ اشتملت في ظنّه على المعالم الأساسية لبنية اللغة الإنسانية. (ص٤٢٣-٤٤٠). ويذكّرنا ما سبق بمفهوم «العامل» و«التعليق» لدى نحاتنا العباقرة.

وفي آخر هذا القسم من الكتاب يبرز سؤال هو: أين نحن الآن؟ فإذا كان تشومسكي قد عدل عن آرائه هذا العدول الحادّ، فما الذي يفعله اللسانيون الآن؟ لقد تابع كثير من اللسانيين «تشومسكي» متابعة حماسية مخلصة زهاء نصف قرن من الزمان، يدرسون كتبه، ويشتغلون في إطار معطياتها دونما كلل أو ملَل. وقد أحسّ كثير منهم بالخذلان حين عدل عن أفكاره هذا العدول الحادّ. إنّ هناك الآن اتجاهًا نحوَ نحوٍ أبسط ممّا سبق لدى تشومسكي؛ إذ يحاول بعض اللسانيين البرهنة على وجود مَلكة لغوية أقلّ تعقيدًا ممّا افترض بشأنها من قبل، وعلى أنّ هذه الملكة قدِ اندمجت في عمليتي «معالجة اللغة» و«اكتسابها»، وفي عملية التطوّر البيولوجي للإنسان اندماجًا كاملًا، ومناسبًا. ويشهد عصرنا - كما تقول المؤلفة - ظهور عدد من الكتب التي تحمل عنوان: اللسانيات المعرفية (Cognitive Linguistics)، وتحاول هذه الكتب جاهدة البرهنة على أنّ ثمة مبادئ «معرفية» عامة هي التي تدير منظومة اللغة، وتتحكّم فيها. (ص٤٤٢- ٤٤٤).

وتقدّم المؤلفة مجموعة من المصادر تحت عنوان: قراءات إضافية. وتضمّ هذه المجموعة عددًا متنوّعًا من الكتب يتميّز معظمها بالحداثة

النسبية، طبع الكثير منها في أرجاء العالم مطلع القرن الحالي (العقد الأول من القرن تحديدًا)، وترى أنّنا قد نجني قدرًا أكبر من الفائدة إذا بدأنا بالنظر في الكتب المؤلفة حديثًا، ثم رجعنا إلى نظيراتها المؤلفة قديمًا. ورتّبت المؤلفة المصادر المقترحة وفق أقسام الكتاب مع بعض الإيضاح الذي يدلّ على مضمون تلك المصادر. (ص٤٤٥-٤٦٥).

علم الأصوات:

ونصل مع المؤلفة إلى القسم الإضافي، وهو المعنيُّ بعلم الأصوات (Phonetics). وكنا أشرنا في مطلع هذه المراجعة إلى أنّ المؤلفة تبنّت رأيًا لعدد من اللسانيين الذين يُخرجون هذا العلم من دوائر اللسانيات، لأنه علم نطقي وفيزيائي وتجريبي بعيد الصلة باللغة. ولذلك جعلته المؤلفة ملحقًا بالكتاب؛ على حين تناولت في مطلع قسم الدوائر الداخلية ما يتصل بعلم الفونولوجيا (Phonology)، كما تقدّم. وعرضت المؤلفة لدراسة أصوات الكلام من الناحية النطقية فقط، وتركت الناحيتين السمعية والفيزيائية. وليس في هذا العرض أمثلة من لغات أخرى، إذ خصّصته لِلّغة الإنكليزية وحدها. ووقفت المؤلفة هنا على تقسيم الأصوات إلى صوامت - (أي: صحاح) -، وصوائت - (أي: علل وحركات) -، وذكرت معايير درس الصوامت القائمة على موضع النطق (المخرج)، والجهر والهمس، وطريقة النطق (الشدة والرخاوة وما بينهما)؛ ثم ذكرت مصطلحاتٍ صوتيةً شائعةً كمصطلح «الصفيري»[٦]، و«المائع»[٧]، .....

(٦) توصف الأصوات العربية السين والزاي والصاد وحدها بالصفيرية، إشارة الى الصفير الذي يصحب النطق بها، نظرًا لضيق منفذ خروج كلّ منهما. (المترجم).

(٧) يمثّل هذا المصطلح (liquid) صفة لعدد من الصوامت كاللام والميم والراء والنون، لما تتسم به هذه الأصوات من تدفق واتساع في منفذ الخروج، فلا يصحبها احتكاك كبير، ولذلك تُشبّه بالصوائت (المترجم بتصرف).

و«شبه الصائت»[٨]، و«الاستمراري غير الاحتكاكي»[٩]، و«الصوتين الأنفيين»[١٠]. ووقفت كذلك على صوائت اللغة الإنكليزية، وشرحت مواضعها في الفم واللسان، واستعملت الشكل الذي اخترعه دانييل جونز (ت١٩٦٧)، ومثّل عليه الصوائت المعيارية للأصوات العالمية. (ص٤٦٨- ٤٧٩).

خاتمة:

وهكذا استوفتِ المؤلفة الحديث عن معظم ما تختصّ به اللسانيات من نظريات، بطريقة شبه موسوعية. بل يمكن وصف هذا العمل العلمي الرصين بأنه موسوعة صغيرة لعلوم اللسان. وهناك تشابه بين هذا العمل، وعمل آخر هو الموسوعة اللغوية (An Encyclopaedia of Language) التي حرّرها الأستاذ «كولنج» (N. E. Collinge)، وترجمها الدكتوران محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان.[١١] ويبقى عمل الأستاذة إتشسن عملًا متماسكًا قريب

(٨) شبه الصائت وصف يستعمل للدلالة على الواو والياء غير الصائتين، وينطبق في العربية على الواو والياء المتحركتين، وعلى الساكنتين بعد فتح.

(٩) الصوت الاستمراري غير الاحتكاكي(approximant): هو الصوت الذي يقترب فيه عضو من أعضاء النطق من عضو آخر اقترابًا يضيّق المسافة بينهما، ولكن لا يحدث احتكاكًا مسموعًا، ويدعى بالصوت التقريبي، وينطبق هذا على نطق بعض الصوامت والصوائت. (المترجم بتصرّف).

(١٠) الصوتان الأنفيان هما الميم والنون، وهما في العربية كذلك، ويوصفان بأنهما أغنّان، من الغنّة. (nasale).

(١١) الموسوعة اللغوية، تحرير كولنج، ترجمة محيي الدين حميدي، وعبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود بالرياض ١٤٢١هـ. وتقع في ثلاثة أجزاء، ضمت بحوثًا لأساتذة مختصين في فروع اللسانيات. ففي الجزء (المجلد) الأول هناك درس للطبيعة الداخلية للغة، فدُرست الأصوات والفونولوجيا، والقواعد، ومعنى الكلمة، والسياق، والنصّ، والمحادثة، وأصناف اللغات. وفي الجزء الثاني دُرست مجالات اللغة الواسعة كالأمراض اللغوية، واللغويات الأنثروبولوجية، واللغة في المجتمع، وتعليم اللغة، واللغة والتربية، واللغة والأدب. وفي الجزء الثالث دُرست صناعة المعاجم، ولغة الإشارة، وتاريخ اللغويات، واللغة والجغرافية، ولغات العالم.

المتناول، إذ يجمع بين الشمول والإيجاز للمسائل الأساسية لهذا العلم الواسع، ولاتجاهات البحث المهمّة فيه، منذ نشأته في القرن التاسع عشر حتى العقد الأول من قرننا الحالي: الحادي والعشرين. ولا شكّ في مبلغ الفائدة التي يجنيها طلبة اللسانيات خاصة، والمثقفون المتطلعون إلى معرفة اللسانيات عامّةً، من خلال اطّلاعهم على هذا الكتاب. أما جهد المترجم الدكتور عبد الكريم محمد جبل فجدير بالتنويه؛ إذ بذل المستطاع لتقديم الكتاب المترجم بطريقة سهلة مفيدة بعيدة عن التعقيد، وحَرَص في ترجمته لهذا الكتاب على الضوابط العلمية الدقيقة، تعبيرًا ومصطلحًا وشرحًا، فسدّ نقصًا في المكتبة اللسانية المترجمة إلى العربية.

* * *

المصادر والمراجع

أ- الكتب:

- أساسيات علم الكلام لبوردن وهاريس، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب وبيروت(د.ت).
- الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام لميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. ثانية ١٩٨٣م.
- علم اللغة في القرن العشرين لجورج مونان، ترجمة نجيب غزواي، وزارة التعليم العالي، دمشق ١٩٨٢م.
- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، لديكرو وسشايفر، ترجمة منذر عيّاشي، جامعة البحرين ٢٠٠٣م.
- اللسانيات (مقدّمة إلى المقدّمات) لجين إتشسن، ترجمة وتعليق عبد الكريم محمد جبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط. أولى ٢٠١٦م.

- مبادئ اللسانيات العامة لأحمد محمد قدّور، المطبوعات الجامعيّة بجامعة حلب، ط. أولى ٢٠٠٦م.
- مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، لبريجيته بارتشت، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. أولى ٢٠٠٤م.
- الموسوعة اللغوية، تحرير كولنج، ترجمة محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود بالرياض، ط. أولى ١٤٢١هـ.

ب- الدّوريات:

- اللسانيات، مجلة في علم اللسان البشري تصدرها جامعة الجزائر، معهد العلوم اللسانية والصوتية، الجزائر، العدد (٦) لعام ١٩٨٢م.

* * *